عندما يُعلي الجنوب معنى الجنوب

رنا سكرية

الجامعة الأميركية في بيروت، لبنان

من منظور الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، لم يكن سلوك الكيان "الإسرائيلي" بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 سوى استمرار، بل وتصعيد لاحتلال قائم منذ عقود خلت لأرض فلسطين. إنه مشروع استئصالي قام على شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" رفعته الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر كتبرير لاستيطان فلسطين. ومن خلاله أوغل قادة الحركة الصهيونية في ارتكابهم المجازر بحق الفلسطينيين ، وتنفيذ حملات طرد الأهالي أصحاب الأرض، فاستخدموا أساليب دعائية مليئة بالأضاليل وأكاذيب التاريخ. وساعدهم في تعميمها تبنِّي الفكر الاستعماري المتجذِّر في دول الغرب الرأسمالي ونفوذه المادي والاقتصادي. وقد أدَّت هذه الحملات الممنهجة إلى طرد وقتل مئات الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني، ثم إعلان إقامة كيان "إسرائيل" سنة 1948، وتمدُّده وتوسُّعه في حروب لاحقة توِّجت بممارسة إبادة جماعية لا تزال مستمرة في قطاع غزة منذ تشرين الأول/ أكتوبر 2023، واحتلال جزء من جنوب لبنان وجنوب سورية في ظل صراع مفتوح مع أهل الأرض في هذه المنطقة.

في الواقع، طالما عبَّر الكيان "الإسرائيلي" علناً عن أطماعه لإقامة "إسرائيل الكبرى" التي تشمل فلسطين، ولبنان، والأردن، وسورية، وأجزاء من العراق والسعودية ومصر الحالية. لكن هذا ليس جديداً لأن الطموح، الذي يُعبَّر عنه الآن بشكل صريح، ينسجم تماماً مع رؤية ثيودور هرتزل الصهيونية التأسيسية لـ"إسرائيل الكبرى" التي تمتد من "النيل إلى الفرات"، ومع "التطلُّعات الصهيونية" لديفيد بن غوريون التي تمتد من مصر إلى العراق، ومراسلات حاييم وايزمان مع حكومة بريطانيا لضمِّ أراضي جنوب لبنان حتى نهر الأوَّلي، أي شمال صيدا.

وهنا، يمكن القول إن سلوك الكيان كشف ولا يزال يكشف بوضوح تام، في هذه اللحظة التاريخية الفارقة، عن جوهر الأجندة الصهيونية. وتتمثل هذه الأجندة في التوسُّع الإقليمي لـ"إسرائيل" وما يصاحبه من إبادة وتطهير عرقي في أماكن احتلاله مدفوعاً بشعاراته القديمة/ الجديدة وبخرائط تشير إلى هذه المشاريع التوسعية—أي "إسرائيل الكبرى" كما يتردَّد دائماً على ألسنة قادة هذا الكيان في المحطات العسكرية والحروب المختلفة. وهنا، من الحريِّ الإشارة إلى أن قادة هذا الكيان لا يعترفون بنهائية حدود كيانهم، وذلك نظراً لربطهم هذا الهدف بمنطلقهم الديني التوراتي المُتبنَّى في صلب العقيدة الصهيونية. أو كما عبَّر عنها أستاذ الدراسات اليهودية والأديان المقارنة فوزي البدوي "أن أرض 'إسرائيل' في النصوص التلمودية تُشبَّه بجلد الغزال: في الحرارة تتمدد، وفي البرودة تتقلص."[1]

في خطط الحركة الصهيونية ومشاريعها تبرز أطماع الصهاينة في أراضي لبنان وسورية كأراضٍ تشملها النبوءات التوراتية باعتبارها "أرض الميعاد"، بالإضافة إلى فلسطين المحتلة، أي الحق الحصري لهم بامتلاكها دون حضور لأيِّ شعب آخر إلا في دائرة إخضاعه. من هذا المنطلق، نال جنوب لبنان النصيب الأكبر من اعتداءات الكيان الصهيوني منذ سنة 1948. وقد وصلت "إسرائيل" في بعض محطات حروبها إلى احتلال جزء من جنوب لبنان (من آذار 1978 إلى أيار 2000)، لكن فصلاً آخر في مسلسل هذه الحروب الوحشية توالى وأعاد سيرة احتلال هذا الجزء من جنوب لبنان.[2]

***

ابتدأت الحرب الأخيرة على لبنان في 8 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 عندما أعلنت المقاومة الإسلامية في لبنان إسناد غزة. لكن مسار الحرب شهد ذروتين من التصعيد الحاد (حرب الـ 66 يوماً من 23 أيلول/ سبتمبر 2024 إلى 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 2024، ومن 2 آذار/ مارس 2026 وحتى اللحظة)، ويعتبر هذا الصراع الدامي نموذجاً للحروب الاستعمارية المستمرة التي تتصاعد حدتها وآلياتها، إذ ما سُميَ "فترة وقف إطلاق النار" الذي لم تلتزم به "إسرائيل"، بل كان مجرد تضليل. وكان الرئيس الأمريكي قد عرف وقف إطلاق النار بقوله: "في ذلك الجزء من العالم وقف إطلاق النار يعني استمرار إطلاق النار ولكن بوتيرة أكثر اعتدالاً."[3] لقد أسفرت مرحلة وقف إطلاق النار التي استمرت 15 شهراً بين الحربين عن استشهاد 500 شخص، وجرح أكثر من 1000 آخرين، وتدمير 45 قرية، وقصف واغتيالات في مناطق امتدت من الجنوب إلى البقاع والضاحية الجنوبية للعاصمة بيروت.[4]

وعلى وقع قصف الطيران الحربي "الإسرائيلي"، وتحليق المسيرات وأزيزها المستمر في فضاءات الجنوب والعاصمة بيروت، وصولاً إلى البقاع الشمالي—الحدود مع سورية، وقتل المدنيين وتدمير بيوتهم ومؤسساتهم البلدية والمدنية، والتوغُّلات البرية، وعمليات التجريف والإحراق والتفجير والتمشيط، واستخدام القنابل الفوسفورية والمضيئة... فقد تغيرت ملامح قرى ومدن بأكملها بعد تحويلها إلى ركام، ومحو معالمها، ولا تزال العمليات الوحشية مستمرة. وتحت وطأة الحالة الخانقة من التدمير الممنهج والفقدان المؤلم، دخل جنوب لبنان وأهله، كما هو الحال في غزة، مرحلة جديدة من الحروب مع "إسرائيل"، يميزها صمود ومقاومة بكافة أشكالها، وبخاصة تبرز على شكل تحدٍّ يرفض الاستسلام، وتمسُّكٍ بالأرض مهما كانت التضحيات.

أن تكتب عن الجنوب، جنوب لبنان، أو جبل عامل في ظل الاحتلال والإبادة والتهجير وخطط الاستعمار الصهيوني التوسعي، يعني أن تقوم بفعل شهادة حيوي يحول دون تطبيع الظلم في ظل صمت محلي وإقليمي ودولي. كما ويجسِّد توثيق هذه الشهادة مفهوم الصمود والمقاومة اليومية في سجل تاريخي يخلِّد إرادة البقاء ورفض الاحتلال. وهنا، سأعرض ثلاثة مشاهد توثِّق صمود الأهالي وتشبثهم بأرضهم.

المشهد الأول: نحن أهل الأرض

تصرخ إحدى المتظاهرات، وهي والدة الشهيد عماد الدين حسن جفَّال وأخت شهيد، ضدّ "المفاوضات الثنائية" بين الدولة اللبنانية والكيان "الإسرائيلي"—المفاوضات التي انطلقت في 14 نيسان/ أبريل 2024 برعاية أمريكية. فتقول بلهجتها الجنوبية:

"أني أم شهيد
وأني اخت شهيد
أني ابني استشهد بضيعتي
أني ابني استشهد قدام بيتي
بضيعة بالجنوب قضاء بنت جبيل، اسمها رشاف
استشهد قدام البيت
ما راح عمطرح
كان يدافع عن أرضو ، عن بيتو،
هذي الأرض أرضنا، جبلناها بولادنا
جبلناها مش بس بدم ولادنا، جبلناها بولادنا شخصياً.
أني ضبِّيت ابني أشلاء ،عظام ناشفة، لحمو ودمّو وشراينو انجبلت بهدي الأرض.
لما حدا بحقّ له يقرِّر عني،
ما حدا بحق له يوقف مع 'الإسرائيلي' ضدي،
نحن اللي منقرر،
اجريهم اللي بتقرر،
دمهم اللي بيقرر،
لحمهم اللي تناثر بالأجواء بقرر،
نحن مش بس أرضنا طاهرة لأنها انجبلت بالدم،
نحن هوانا طاهر لأنو شذرات دمهم ولحمهم تناثرت في الهواء
بس هالقد." [5]

مرئية رقم (1): والدة الشهيد عماد الدين حسن جفَّال،
من رشاف—بنت جبيل، Free Palestine TV، 10 آب 2026

إن كلمات هذه السيدة الصابرة هي ترجمة فعلية لمفهمة أهل الأرض بما هي ارتباط متبادل وعلاقة اجتماعية وثقافية وروحية وصلة قرابة مع ترابها. إنه ارتباط تشكَّل منه انتماء أهلها لها وعلاقتهم السياسية والوطنية والنفسية بها،

أي مع المكان بما هو هوية وانتماء وفعل حضاري. الأرض ليست عقاراً يباع ويشترى ويتبدل، إنها جوهر الوجود الفردي والجماعي، وتتجاوز العلاقة معها المنظور المادي الضيق لتصبح عملية حية لإنتاج المعنى والذاكرة الوطنية في مواجهة سياسات المحو والاحتلال. تتجسد هذه العلاقة السياسية في مفهوم الصمود والمقاومة اليومية، وبهذا المعنى، نفهم تعلُّق أهل الجنوب اللبناني بأرضهم، شأنهم شأن الشعب الفلسطيني وكل الشعوب المناضلة ضدّ الاستعمار والاحتلال، واستعدادهم للتضحية بأرواحهم في سبيل الدفاع عن الأرض، والصمود في وجه الإبادة الجماعية، واستمرار هذه التضحية جيلاً بعد آخر، وحرباً إثر أخرى. فكم من شهيد كان جريحاً سابقاً أو مقاتلاً سابقاً في حروب سابقة ضدّ الصهيانة. وكم من شهيد هو ابن وحفيد وأخ شهيد. وكم من أهل الجنوب دُمِّر بيته وفقد رزقه مرات متتالية منذ سنة 1948، وقبلها بكثير إذ يفيد سجل المقاومة المجيد أن حركات فلسطينية معارضة للأطماع الصهيونية بدأت عند الفلاحين من العام 1886، وبعدها بشكل أكثر منهجية في طبريا في العام 1901.[6]

وفي هذا السياق، يخبرنا الجنوبيون من أهل الأرض حكايا أجدادهم وأهاليهم عن مقاومتهم اليومية للعدو الصهيوني وعملائه. فمنهم من كان يُخبِّئ معلبات الطعام في البراري للمقاومين، ومنهم من يخبز يومياً ويترك أرغفة البقاء في مطبخ بيته للفدائيين... لقد كانوا، ولا زالوا، يسعون في سبل العيش في بيئة معسكرة كثيفة، حتى في أيام "السلم"، حيث تُشكِّل أعمال المراقبة وزرع الألغام وإلقاء القنابل العنقودية والاشتباكات وضبط الحدود جزءاً من الواقع اليومي، وبخاصة في القرى المتاخمة للحدود. ولأنهم أهل الأرض، أبدع الجنوبيون في صناعة الحياة في بيئة مقاومة حيث الحرب هي الشبح الحاضر—الغائب في كل وقت.

المشهد الثاني: صور الشهداء

تزيِّن صور الشهداء بأحجامها المختلفة وتواريخ ارتقائهم أعمدة الإنارة، وجوانب الطرقات، والساحات العامة، ومنازل الأقرباء، وأمكنة الاستشهاد، والمقابر الجماعية المؤقتة والتي ابتدع لها أهلها مفردة "الوديعة"، أي الأمانة إلى حين عودة الرفات إلى مكانها الأول. إنها صور تحمل معنى أكبر من الإشارة إلى خسارة أو وداع أو تشييع أو عزاء أو حداد... لتصبح رمزاً لقيم الفداء والتضحية. ومن أجل تحرير الأرض تغدو الصورة، وبقوة أكثر مجموعات الصور المتتالية في مشهدية الجنوب، شاهداً على عنف العدو تقابله إرادة البقاء ورفض الخضوع كترجمة فعلية لما يقدمه أهل الأرض من أجل بقائهم.

يُنظر إلى الشهداء على أنهم أحياء يستعصون على الموت، وتتجاوز صورهم اعتبارها تمثيلات بصرية لتشكِّل حالة تلعب دوراً فاعلاً في العمل السياسي، وحافظة للذاكرة الجماعية، وملهماً حيوياً للأحياء، ولتعزز ثقافة مقاومة واعية مستمرة. فالشهداء لم يغيبوا، بل أعادوا إنتاج فكرة التضحية من أجل الحق، وزرعوا قيماً ترتحل من مكان إلى آخر، ومن جيل إلى آخر.

مرئية رقم (2): شهداء مدينة صور، تصوير المؤلفة، 19 آب 2026

المشهد الثالث: بيع كعك العباس

على الطريق المؤدي إلى صفد البطيخ (شقرا—برعشيت) في قضاء بنت جبيل، وبالقرب ومقابل قرى وقعت تحت الاحتلال مجدداً [مثل ميس الجبل وحولا وتلة شقرا]، وعلى وقع أصوات التفجيرات "الإسرائيلية" الفاشية في القرى المجاورة، يجلس الحاج علي زين الدين، وهو رجل سبعيني في العمر على حافة الطريق، باسطاً ما حضَّره فجراً مع زوجته من أنواع الحلوى محلية الصنع على شكل أقراص العيد المشابهة لهذا النوع من الأقراص في فلسطين وسورية، والتي تُعرف باسم "كعك العباس"، لكنها تكاد تكون حصراً جنوبية الصنعة والتسمية. وكعك العباس هذا ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمناسبة مراسم عاشوراء الكربلائية، ويقدم عن أرواح الموتى والشهداء في هذه المناسبة. ولهذا الكعك الجنوبي الصنعة نكهة مميزة بإضافة كمية اليانسون وبهار العقدة الصفراء.

ومع هذا الرجل السبعيني دخل أحد الناشطين من أبناء الأرض ومن الفاعلين في مبادرات مجتمعية بدردشة تأملية لمحاولة استكناه مشاعره.[7] كان بريق عيون الرجل أسرع جواباً، مع التفاتة مرفوعة الرأس، مردِّداً كلمات مقتضبة تفصح عن معاناة صحية أجبرته على ترك عمله في مهنة النجارة، وعن سعيه إلى تأمين قوت عائلته من

خلال بيع كعك العباس، وكأنه يرفض الإفصاح أكثر عن حاله، وكأنه يقول إن كرامته تأبى التسوُّل، وكأنه يقول إن تشبُّثه بأرضه وبجذوره تجسده هذه الكعكة بكل ما تحمل من رمزيات البقاء رغم العطش والجوع والخوف. وهي الكعكة المصنوعة من خيرات أرضه وعليها سيبقى.

مرئية رقم (3): الحاج علي زين الدين والناشط حسين صالح،
صفحة Hussein Saleh، 2026

***

إن اختيار هذه المشاهد الثلاثة الملتحمة بالأرض يتجلَّى من خلالها صمود الجنوبيين، أهل الأرض، ورفض المحو والتهجير القسري. وكما في غزة، ومختلف أنحاء فلسطين، يبقى الإصرار على البقاء وسيلة أعلى من شعور الحزن في الجنوب، وأكثر فاعلية للإبقاء على نقاء الذاكرة، ومواجهة الفقد، والبقاء على هذه الأرض بقوة الحق

الإحالات

[1] فوزي البدوي، "من غزة إلى ايران: كيف يشتغل الدين في الحرب،" **بودكاست ديوان أثير**، 30 آذار 2026، شوهد في 10 آب 2026.
https://www.youtube.com/watch?v=HWMx3-Xlr6Y&t=3s.

[2] للمزيد انظر: رندة حيدر ورازي نابلسي، "الاعتداءات 'الإسرائيلية' على لبنان 1948-2026: جدول زمني،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 147 (2026): 221-239.

[3] "Trump: Middle-East ceasefires involve 'moderate' shooting," *TRT World*, 4 June 2026, accessed 10 August 2026.
https://www.youtube.com/shorts/lH3rK3ALbA4.

[4] لمزيد من الإحصائيات عن الاعتداءات "الإسرائيلية" على لبنان، يمكن مراجعة الخريطة التفاعلية في **مجلة أشغال عامة**، "الاعتداءات "الإسرائيلية" على لبنان: أشكال القصف، ووعية الأهداف، وعدد الشهداء..." شوهد في 10 آب 2026:
maps-interactive=categories_?/magazine/com.publicworksstudio//:https .

[5] "الشعب اللبناني يتظاهرون ضد التطبيع"، *Free Palestine TV*، 14 نيسان 2026، شوهد في 10 آب 2026.
https://www.youtube.com/shorts/uRI3E5CdoYw .

[6] بلال عوض سلامة، **في معنى الأرض: استعادة الذات الفلسطينية** (الدوحة /بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021).

[7] صفحة Hussein Saleh على فيسبوك، 12 آب 2026، شوهد في 14 آب 2026.
https//:www.facebook.com/share/v19876/vV2nr /.